الفصل السادس

الزعامة الدينية في السودان

في ظل السيطرة البريطانية (١٩١٤-١٩٢٤)

خالد عيد الناغية

يتناول هذا البحث دور الزعامة الدينية في السودان في ظل السيطرة البريطانية (١٩١٤-١٩٢٤)، وأعنى بالزعامة الدينية زعماء الطرق الصوفية(*) التى انتشرت في السودان منذ مطلع القرن التاسع عشر، وكان من أشهر هذه الطرق خلال فترة موضوع الدراسة: الطريقة الختمية(**)، والطريقة السمانية(***)، والطريقة الإسماعيلية(*)، وبرز من زعماء هذه الطرق السيد: علي الميرغنى، وعبدالرحمن المهدى، والشريف يوسف الهندى.

وقد أدركت الإدارة البريطانية في السودان أن هذه القيادات لها نفوذ قوي، وكلمة مسموعة بين أبناء الشعب السودانى، وأن التعاون معها يعد عاملاً مهماً؛ لتحقيق الاستقرار للحكم البريطاني في السودان.

وسار البحث في دراسته لهذا الموضوع في ثلاثة محاور:

المحور الأول: موقف الزعامة الدينية في السودان من بريطانيا إبان الحرب العالمية الأولى ١٩١٤م.

المحور الثاني: موقف الزعامة الدينية من ثورة ١٩١٩.

المحور الثالث: الزعامة الدينية وأحداث عام ١٩٢٤ في السودان.

المحور الأول: موقف الزعامة الدينية في السودان من بريطانيا إبان الحرب العالمية الأولي١٩١٤

نظرت الإدارة البريطانية إلى الزعماء الدينيين بوصفهم إحدى القوى الرئيسية في السودان ذات الثقل الكبير في تحديد الموقف السياسي للبلاد، بطريقة تخدم أهداف السياسية البريطانية في السودان والتي تتمثل في:

١-تأييد الحكم البريطانى في السودان لمواجهة الحق المصرى.

٢-انتقال صدى الحركة الوطنية في مصر في أذهان السودانيين إلى اتجاه خاص يدفعهم إلى رفع شعار السودان للسودانيين في ظل الحماية والإشراف البريطاني.

٣-الحد من تيار الدعاية للدولة العثمانية خلال الحرب العالمية الأولي عام ١٩١٤[١].

لذلك احتضنت الحكومة البريطانية القيادات الدينية في السودان، وأنعمت عليهم بالأوسمة والنياشين ، وتقديم الإعانات المالية ، كما سمحت لهم بالاحتفاظ بالمكانة الاجتماعية والسياسية التي يتمتعون بها[٢]. ومن ثم أصبح هؤلاء الزعماء أداة طيعة في أيدى الإدارة البريطانية ، حيث قاموا بتهيئة الرأي العام في السودان لقبول الحكم البريطانى ، فأعطوه دفعة قوية كان في أمس الحاجة إليها في سنوات حكمه الأولى[٣].

وكان قيام الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ أول اختبار حقيقى للتعاون بين الإدارة البريطانية والزعماء الدينيين ، فقد ترتب علي دخول الدولة العثمانية الحرب إلى جانب ألمانيا ضد دول الوفاق - أن اهتمت الإدارة البريطانية بضرورة اكتساب ولاء السودانيين.

وقد بذل ريجنالد ونجت Reginald wingate حاكم عام السودان - قدر طاقته - جهوداً لتحويل دفة المشاعر الإسلامية عن الآستانة ، حيث طلب من الزعماء الدينيين في السودان الحضور إلى مقر الحاكم العام ، وعقد معهم اجتماعاً بيَّن فيه الفوائد التي عادت علي السودان من الحكم البريطانى ، وأن بريطانيا تقف إلى جانب الإسلام والمسلمين[٤] .

وتحمس الزعماء الدينيون الذين حضروا هذا الاجتماع ، ووقّعوا علي وثيقة ولاء وإخلاص للحكومة البريطانية، وعبّروا فيها عن تمسكهم بمبادئ الحق والعدالة التى دفعت الحكومة البريطانية إلى الدخول في الحرب من أجلها، وكذلك استنكارهم قيام الدولة العثمانية بإعلان الحرب ضد بريطانيا[٥].

ويعد هذا التأييد الذى حظيت به بريطانيا من الزعماء الدينيين في السودان أول إعلان رسمي من جانب دولة إسلامية ضد الدولة العثمانية.

وفي حقيقة الأمر لم يقتصر موقف الزعماء الدينيين تجاه بريطانيا إبان الحرب علي مجرد التأييد بل تعداه إلى قيام السيد: علي الميرغنى، وعبدالرحمن

المهدى، والشريف يوسف الهندى بتقديم تبرعات مالية، وضعت في صندوق خاص عرف باسم الصندوق الخيرى؛ وذلك لكى تتمكن الإدارة البريطانية من الوفاء بالتزاماتها خلال فترة الحرب، وحذا حذو هؤلاء الزعماء بقية القيادات ورجال الدين الذين أقبلوا علي الاكتتاب بهمة وسخاء[٦].

ومن الجدير بالذكر أن الزعماء الدينيين في السودان لم يكونوا وحدهم من بين زعماء المسلمين الذين تقدموا بتبرعات مالية للحكومة البريطانية، إذ إن زعماء المسلمين في نيجيريا تبرعوا بنحو ثلاثمائة جنيه لمساعدة الحكومة البريطانية في الحرب، ودفعوا هذا المبلغ إلى حاكم عام نيجيريا ومعه رسالة من أولئك الزعماء جاء فيها: "إن الهدية علي مقدار مهديها فالأمراء والكبراء يهدون مبالغ جسيمة لأنهم ثروة، أما نحن فإن هديتنا صغيرة لأننا صغار ونحن نرجو من جلالة الملك أن يتصرف في هذا المبلغ علي ما يتراءى له في حكمته الواسعة وعلي كل حال فإننا عبيد مولانا الملك ونحن مستعدون لخدمته في الحرب إذا رغب في ذلك، فإننا نحن المسلمين نسأل الله أن ينصر جلالته علي أعدائه"[٧].

ووصل التعاون بين الإدارة البريطانية والزعماء الدينيين في السودان إلى قمته ، عندما اتصل السيد علي الميرغنى بالشريف حسين – شريف مكة – وحثه علي التحالف ضد الدولة العثمانية. فأعد الميرغنى مذكرة في أبريل عام ١٩١٥ رفعها إلى ونجت ، وبيَّن ضرورة اعتراف الحكومة البريطانية ببقاء شبه الجزيرة العربية – بما فيها الأماكن المقدسة – مستقلة ذات سيادة ، وأن يكون ذلك شرطاً من شروط أى اتفاق مع العرب[٨] .

وقام ونجت بدوره بتقديم مذكرة الميرغنى إلى الخارجية البريطانية التى وافقت علي ما جاء فيها، وأوصت ونجت بإذاعة التصريح الخاص بتأييد بريطانيا لإنشاء دولة عربية مستقلة في شبه الجزيرة العربية والأماكن المقدسة. أما مسألة الخلافة فهى من المسائل التي يجب علي المسلمين وحدهم حسمها[٩].

وبناء علي هذا التصريح البريطاني كتب الميرغنى مذكرة أخرى في ٦ مايو عام ١٩١٥ ، اقترح فيها علي الحكومة البريطانية أن يتولي كبير أشراف مكة الحسين بن علي زعامة الدولة العربية لما يتمتع به من ميزات. منها نسبه للرسول صلي الله عليه وسلم ، ومركز بلاده الدينى الذي يضم الأماكن المقدسة ، فضلاً عن اتصالاته عن طريق ولديه عبدالله وفيصل بزعماء

الحركة القومية العربية في بلاد الشام[١٠].

وكان ترشيح الميرغنى للشريف حسين لقيادة الدولة قد حظى بتأييد من جانب زعيم دينى آخر في السودان هو الشريف يوسف الهندى ، الذي أعلن أن الشريف حسين هو الرجل الوحيد الذي يملك صفات الخلافة[١١]. كما أن هذا الترشيح يطابق تماما وجهة النظر البريطانية، رغم أن سياستها قامت بالتعامل مع هذه المسألة علي أنها من المسائل التي يتعين علي العرب حسمها بأنفسهم دون تدخل من جانب الدول الأخرى.

يتضح مما سبق أن موافقة الحكومة البريطانية علي ما جاء في مذكرة الميرغنى في أبريل عام ١٩١٥ ، وما أعقبها من صدور التصريح البريطانى – أعطي السيد علي الميرغنى الفرصة لكي يلعب دورا مهماً في المفاوضات التي قامت بين بريطانيا والشريف حسين ، وبخاصة أن السيد علي الميرغنى كان علي اتصال بالشريف حسين قبل نشوب الحرب العالمية الأولي ؛ فاستغلت الحكومة البريطانية هذا الاتصال ، وطلبت من ونجت تكليف السيد علي الميرغنى بمعاودة الاتصال بالشريف حسين.

وبدأت المراسلات بين الميرغنى والشريف حسين في مايو عام ١٩١٥، حيث أعرب الميرغنى في إحدى رسائله إلى الشريف حسين عن استعداده لتقديم يد المساعدة عن طريق صديقة حاكم عام السودان . وفي إحدى رسائل الشريف حسين إلى الميرغنى في أكتوبر عام ١٩١٥ أشار إلى أن الرأي العام في الولايات العربية يميل إلى التعاون مع بريطانيا، وأنه يحتاج إلى مساعدة السيد علي الميرغنى في إقناع المسئولين البريطانيين بعدالة المطالب العربية ، وبخاصة ما يتعلق بمسألة الحدود التى جاء الحديث عنها في رسالة هنرى مكماهون Henry Macmahon – المندوب السامي البريطانى فى مصر – فى ٣٠ أغسطس ١٩١٥ بأن البحث فيها سابق لأوانه[١٢].

وشرع الحسين يؤكد للميرغنى أنه من الضروري البحث في هذه المسألة ، لأنها تتعلق بصميم حياة العرب ووجودهم، واختتم الشريف رسالته بأنه لن يتخذ أي خطوات أخرى في علاقته مع بريطانيا إلا عن طريق السيد علي الميرغنى[١٣].

وقد سلم السيد علي الميرغنى نسخة من رسالة الشريف حسين إلى هنرى مكماهون الذي رفعها بدوره إلى وزارة الخارجية البريطانية[١٤]. مما يؤكد أن

السيد علي الميرغنى كان يكتب رسائله إلى الشريف حسين بإيحاء من بريطانيا عن طريق حاكم عام السودان ، وفي الوقت نفسه كان يطلع بريطانيا علي خطابات الشريف ، وبالتالي يتيح لها معرفة أقصى ما يريده الشريف ، فيسهل عليها إقناعه بوجهة نظرها.

وعلي ذلك بادر السيد علي الميرغنى بالكتابة إلى الشريف حسين في ١٧ نوفمبر ١٩١٥ يوضح عزم بريطانيا علي مساعدة العرب في الحصول علي الاستقلال من الحكم العثمانى، وإنشاء دولة عربية، وأن بريطانيا تريد خيرا للإسلام والأمة العربية، وأنها حريصة علي احترام مشاعر العرب القبلية والدينية، واختتم الميرغنى كتابة بأنه بيَّن للساسة البريطانيين أن الشريف حسين هو الرجل الوحيد الذي يستطيع النهوض بالقضية العربية، وأن قيام الشريف حسين بإعلان الحرب ضد الدولة العثمانية لا يشكل عصياناً يضر بمصالح المسلمين بل علي العكس سيعتبرونه واجباً مقدساً لخدمة مصالح الدين[١٥].

وهكذا بات واضحاً أن اتصالات السيد علي الميرغنى مع الشريف حسين كان لها أثران:

أولاً: تسهيل الاتفاق مع بريطانيا، وبخاصة أنها تضرب على وتر المساعدات البريطانية والخلافة والدولة العربية المستقلة.

ثانياً: إشاعة الطمأنينة في نفس الشريف حسين بأن سياسته في محاولة الخروج علي الدولة العثمانية تلقى تأييداً من جانب أحد كبار زعماء المسلمين في السودان.

المحور الثانى: موقف الزعماء الدينيين من ثورة عام ١٩١٩ في مصر

انقسم موقف المسئولين البريطانيين في القاهرة والخرطوم تجاه هذه الثورة إلى فريقين:

الفريق الأول: تزعمه السير ريجنالد ونجت – المندوب السامي البريطاني في مصر – الذي حذر من خطورة ثورة عام ١٩١٩ علي السودان وجميع الأقطار المجاورة، لذلك حث الحكومة البريطانية علي ضرورة مواجهة هذه الثورة بكل قوة[١٦].

الفريق الثاني: وتزعمه السيرلي ستاك Sir Lee Stack– حاكم عام السودان – وكان من رأيه أنه لا يوجد أى سبب للانزعاج من ثورة ١٩١٩ ، وراح يؤكد للحكومة البريطانية أنها لن تجابه أي انفجار ثورى في السودان ؛ لأن السودان أعطى ولاءه الكامل لبريطانيا عن طريق الزعماء الدينيين كما حدث إبان الحرب العالمية الأولى ، فقد رفض الزعماء الدينيون محاولات بعض المصريين لإقناعهم بالانضمام إلى الحركة الوطنية ومعارضة السيطرة البريطانية في مصر والسودان(١٧).

وقامت القيادات الدينية بتشجيع من حكومة السودان بإرسال برقيات في ٢٣ إبريل عام ١٩١٩ يجددون فيها ولاءهم التام وإخلاصهم الكامل للحكومة البريطانية وسياستها في السودان ، وعبّروا في هذه البرقيات عن امتنانهم للجهود التى بذلتها هذه الحكومة في تنمية بلادهم ، وأنه لا تربطهم أي رابطة بالثورة التى حدثت في مصر عام ١٩١٩(١٨). كما أرسل الشريف يوسف الهندى في ٢٦ أبريل عام ١٩١٩ برقية مماثلة للبرقيات السابقة ، أكد فيها أن السودان قادر علي الانفاق علي نفسه دون مساعدة من أحد ، وعلي تحمل مسئولية الاستقلال تحت الحماية البريطانية وتحدث السيد : على الميرغنى بصفة خاصة عن طموحه في أن يرى شعب السودان ينمو تحت توجيه الحكومة البريطانية إلى شعب موحد له قوانينه الخاصة وعاداته وإدارته وقادر علي حكم نفسه والدفاع عن مصالحة(٢٠).

يتضح مما سبق أن الزعماء الدينيين قد وقعوا تحت تأثير نفوذ الإدارة البريطانية في السودان ، وتنكروا للتضحيات التي بذلتها الحكومة المصرية من أجل بلادهم ، وربطوا مستقبلهم السياسى ومستقبل بلادهم ببريطانيا . ولذلك اقترح عدد من نبلاء السودان بأن يذهب إلى لندن وفد يمثل الموظفين والزعماء الدينيين والإداريين نيابة عن السودان لتقديم التهانى إلى ملك انجلترا بمناسبة انتصاره في الحرب العالمية الاولى وتوقيع معاهدة الصلح ، والإعراب عن آمالهم في مستقبل السودان(٢١) .

وضم الوفد من القادة الدينيين السيد علي الميرغنى والشريف يوسف الهندى وأضيف إليه السيد:عبد الرحمن المهدى وذلك بناء على توصية من السيرلى ستاك نظراً للجهود التى بذلها عبد الرحمن المهدى إبان الحرب العالمية الأولى لصالح بريطانيا ، إذ نجح في تحويل دفة المشاعر الإسلامية في السودان عن الدولة العثمانية . ولذا لم تعترض الحكومة البريطانية علي إدخاله ضمن الوفد

السوداني[٢٢].

ويبدو أن اهتمام السياسة البريطانية بالسيد عبدالرحمن المهدي نابع من أملها في تحويل المهدية إلى طريقة دينية سلمية مثلها مثل الطريقتين الأخريين الختمية والهندية ، وبذلك تتحاشى قيام ثورات دينية تحت رعاية أنصار المهدية ضد الإدارة البريطانية في السودان ، وكذلك إحداث توازن سياسي بين المهدية من ناحية والختمية من ناحية أخرى ، بحيث يحد من احتمال تمادى الختمية بزعامة السيد علي الميرغنى في دورها وادعائها بالانفراد بقيادة الشعب السوداني.

علي أية حال، غادر الوفد السودانى برئاسة السيد علي الميرغنى السودان في ٢ يوليو ١٩١٩ متجها إلى لندن التى وصلها في ١٩ يوليه من نفس العام، وظل بها حتي ١٤ أغسطس ١٩١٩، واستقبلهم الملك جورج الخامس ملك بريطانيا استقبالاً حافلاً وأكرم وفادتهم، كما أنعم عليهم بالرتب والنياشين، حيث منح السيد علي الميرغنى بنيشان من درجة فارس قوماندز من فرسان فكتوريا، كما منح الشريف يوسف الهندى، وعبدالرحمن المهدى نيشان من درجة رفيق من الرتبة نفسها[٢٣].

وصرح السيد علي الميرغنى أثناء مقابلته الملك جورج الخامس بأن الخدمات التي قدمتها السودان لبريطانيا في أثناء الحرب العالمية الأولى لم تكن إلا مظهراً من مظاهر الاعتراف بالجميل لما قدمته الحكومة البريطانية للسودان، وطلب منه أن تظل الراية البريطانية طويلاً علي ربوع السودان لينتشر الهدوء والسلام فيها، وتمهيد طريق التقدم حتي تصبح البلاد في وضع يسمح لها أن تكون عضواً فاعلاً من أعضاء الإمبراطورية البريطانية[٢٤].

مما لاشك فيه إن قيادة الزعامة الدينية للوفد السودانى الذي ذهب إلى لندن في يوليه عام ١٩١٩ ، والخطاب الذى ألقاه السيد علي الميرغنى في حضرة الملك جورج الخامس، والحفاوة البالغة التي استقبل بها هذا الوفد في لندن – يعد دليلاً واضحاً علي قمة التعاون بين الزعماء الدينيين في السودان والحكومة البريطانية ، كما يعد أيضاً اعترافاً رسمياً من قبل هذه الزعامة بأن السودان أعلن خضوعه وولاءه التام لبريطانيا ، وكذا عدم ارتباطهم بالحركة الوطنية في مصر ، وكان هذا كل ما تهدف إليه السياسة البريطانية بحيث تحول دون تأثر السودانيين بثورة عام ١٩١٩ في مصر.

المحور الثالث: موقف الزعامة الدينية من أحداث عام ١٩٢٤ في السودان

تشكلت جمعية اللواء الأبيض في الخرطوم في بداية عام ١٩٢٤ وكانت تهدف إلى توحيد وادى النيل مع مصر بصفتهما دولة مستقلة واحدة ، وضمت الجمعية المواطنين السودانيين من خريجى كلية غوردون والموظفين السابقين والمصريين المقيمين في السودان[٢٥].

وقد أرسل أعضاء هذه الجمعية برقية إلى حاكم عام السودان أشاروا فيها إلى أنهم لا يريدون بالحكم المصرى بديلا ، وأنهم ينفضون من حول كل فرد حاول خداعها في الماضى[٢٦]. هذا الشعور الذى أظهره أعضاء جمعية اللواء الأبيض تجاه مصر دفع أحد الموظفين البريطانيين في السودان إلى القول بأنه "لو كان ولاء السودانيين للمصريين كولائهم ومحبتهم لنا (أي لبريطانيا) ، لجاز أن نفخر بأننا نجحنا في استعمار السودان أكبر نجاح ، ولكن مصر للسودان كالكعبة للمسلمين"[٢٧].

ولجأت الإدارة البريطانية في السودان إلى مقاومة نشاط هذه الجمعية باستخدام العنف أحياناً ، وبتملق بعض أعضائها البارزين أحياناً أخري ، بإسناد المناصب الرفيعة إليهم ، ومنحهم المرتبات العالية[٢٨]. ولكن هذه المحاولات لم تثن أعضاء الجمعية عن المضى قدماً نحو الدعوة إلى وحدة مصر والسودان، ومعارضة كل سياسة تهدف إلى فصل السودان عن مصر ، والهتاف لملك مصر والسودان الملك فؤاد الأول. كما قاموا بتوجيه نداء إلى الحكومة المصرية بضرورة إظهار اهتمامها الفعلي بالسودان حتى تقوى مركزها وتستعيد نفوذها بين السودانيين ، وتعطى الفرصة للحديث عنها من خلال رجال الحركة الوطنية في السودان المتمسكين بوحدة البلدين ، وبالتالي تزعزع مركز بريطانيا في السودان. لذلك اقترح بعض السودانيين من أنصار الوحدة علي الحكومة المصرية إنشاء سكرتارية خاصة تهتم بالشئون السودانية تلحق بمجلس الوزراء[٢٩].

اضطرت الحكومة البريطانية وسط هذه الأجواء المعادية للإدارة البريطانية في السودان – إلى التلويح بمنح السودان حكماً ذاتياً ، فوجد ذلك هوى في نفوس الشباب السودانى المثقف الذي رفع شعار السودان للسودانيين . وتلقف عبد الرحمن المهدى هذه الفكرة وأخذ يدعو للانفصال عن مصر ، ويشن حرباً

شعواء علي السودانيين الذين يحاولون توثيق الروابط مع مصر[٣٠] .

فالسيد: عبد الرحمن المهدى كان يعتبر نفسه صاحب الحق الشرعى في السيادة علي السودان لأن والده محمد أحمد المهدى كان الحاكم المتصرف فيه في أعقاب الثورة المهدية ، لذلك دعا زعماء السودان إلى مؤتمر في أم درمان في ١٠ يونيه عام ١٩٢٤ ، وقرر المجتمعون في هذا المؤتمر تطلعهم إلى الحكم الذاتى في السودان تحت توجيه الحكومة البريطانية ، وأنهم علي استعداد إخراج المصريين من السودان[٣١] .

أما السيد علي الميرغنى فقد أمر مشايخ بعض القبائل السودانية مثل الهدندوة ، والأمرار، وبنى عامر - بالتوقيع علي عرائض الثقة و الولاء للحكومة البريطانية[٣٢]. كما أرسل الشريف يوسف الهندى رسالة إلى حاكم عام السودان أعلن فيها عدم ارتباط السودان بمصر، ورضاءه التام بالحكم البريطاني في السودان من أجل إتمام المشروعات التى أنفق عليها الملايين، واختتم رسالته قائلاً "إن ارتباطنا بمصر ضعيف أضعف من بيت العنكبوت"[٣٣].

وقد سبق أن صرح ميرغنى السيد مكى زعيم الطريقة الإسماعيلية والقبائل التابعة لها أنه "لم يكن في يوم من الأيام أن كانت السودان ومصر دولة واحدة، فالسودان كان دائما لملوكها وسلاطينها الذين لم يخضعوا لأي حكم من دولة أخرى، فالسودان لم تكن أبداً جزءاً من مصر بالرغم من أن محمد علي استولى عليها بالقوة، ومع ذلك ظلت السودان دولة إسلامية من خلال رجالها المتعلمين ورجال الدين الأتقياء"[٣٤].

ويبدو أن التصريح الذى أدلى به ميرغنى السيد مكى مثل غيره من التصريحات التى أدلى بها الزعماء الدينيون الآخرون في السودان، كان بإيعاز من الإدارة البريطانية للتنكر من فترة الحكم المصرى، واتهامه بتخريب السودان، وإهمال كافة المصالح السودانية، وفى الوقت ذاته تمدح سياسة الإدارة البريطانية في السودان التي نشرت الأمن والطمأنينة في ربوعه، كما اهتمت بنشر الثقافة والتعليم فيه، والنهوض به من الناحية الاقتصادية.

وهكذا بدأ الزعماء الدينيون يكتسبون شخصية سياسية ، فهم يريدون من الحكومة البريطانية أن تضع أسساً سليمة يبنى عليها كيان بلادهم السياسي والاقتصادى حتى إذا جاء الوقت المناسب استطاعوا استلام زمام الحكم في بلادهم وتحمل أعبائها[٣٥].

هذا التأييد الذى حظيت به الحكومة البريطانية من الزعماء الدينيين لم يرض جمعية اللواء الأبيض التى قررت جمع توقيعات من سائر أنحاء السودان تؤكد تمسكهم بوحدة وادى النيل وتألف وفد من بين أعضاء هذه الجمعية برئاسة "الملازم زين العابدين عبد التام" للسفر إلى مصر لإظهار ولاء السودانيين للحكومة المصرية ، وإطلاعها علي حقيقة ما يجرى في السودان ، لكن السلطات البريطانية منعت الوفد من مغادرة السودان[٣٦].

وقد انهالت البرقيات من بعض السودانيين علي البرلمان المصرى يعربون فيها عن احتجاجهم علي منع الوفد السودانى من السفر إلى مصر ، ونددوا بسياسة الإدارة البريطانية في إخماد تلك الحركة السلمية المشروعة ، واحتج البرلمان المصرى علي تلك التصرفات وطلب من الحكومة المصرية التدخل لوضع حد للسياسة الاستعمارية البريطانية في السودان[٣٧]. كما أصدر مجلس الشيوخ المصري بجلسته المنعقدة في ٢٥ يونيه عام ١٩٢٤ قرارا بالاحتجاج علي ما تقوم به الإدارة البريطانية في السودان من أعمال القمع والإرهاب لمنع السودانيين من إظهار تعلقهم بمصر وولائهم لملك مصر[٣٨].

واستمرت السلطات البريطانية في السودان في سياسة العنف تجاه أعضاء جمعية اللواء الأبيض ، وظهر ذلك في محاكمة علي عبد اللطيف والحكم عليه وعلي زملائه بالسجن ولم يكن لأولئك من ذنب سوى إظهار ولائهم لمصر ، مما أدى إلى قيام مظاهرات واضطرابات معادية لبريطانيا وموالية لمصر في أربعة أماكن رئيسية هي عطبرة ، والخرطوم ، وأم درمان وبور سودان ، تطورت إلى حركة عنيفة ، ففى أغسطس عام ١٩٢٤ سار طلبة المدرسة الحربية بالخرطوم من مصريين وسودانيين بأسلحتهم وذخيرتهم في شوارع المدينة ، وتوجهوا إلى عدد من الأماكن مثل السجن الذي كان يوجد فيه علي عبد اللطيف ، حيث كان يؤدى عقوبة السجن لمدة ثلاث سنوات فرضتها عليه الإدارة البريطانية ، وفى أثناء الليل علقت الشعارات المعادية للحكم البريطانى علي أعمدة التلغراف والمنازل، وفي ذلك الوقت أيضاً تمرد عدد من الجنود المصريين في خدمة الحكومة السودانية وقاموا بتخريب شامل في ممتلكات الحكومة لمدة ثلاثة أيام متتالية[٣٩].

وقد قابلت السلطات البريطانية هذه المظاهرات بإطلاق الرصاص علي المتظاهرين وعلي عساكر أورطة السكة الحديد بعطبره داخل ثكناتهم، فقتل منهم عشرة، وجرح تسعة بجروح خطيرة، وقامت القوات البريطانية بمحاصرة

عساكر الأورطة، الأمر الذي دفع صف ضباط وجنود أورطة السكة الحديد بعطبرة إلى إرسال برقية استغاثة للحكومة المصرية جاء فيها "نحن صف ضباط وعساكر أورطة السكة الحديد بعطبرة ضُربنا بالرصاص ظلماً وعدواناً بأمر الإنجليز علينا حرس بالقشلاقات بعد أن قتل وجرح منا سبعة عشر أنقذونا حالاً"[٤٠]. كما أرسل الموظفون المصريون في السودان برقية مشابهة جاء فيها... نحتج بكل قوانا نحن العزل إذ لم يبق في قوس صبرنا منزع فنستحلفكم باسم الوطن المقدس وباسم الضحايا العزيزين أن تنقذونا"[٤١].

وأمام خطورة الموقف في السودان طلب أعضاء الحزب الوطني في البرلمان من الحكومة المصرية ضرورة دعوة البرلمان لانعقاد رسمي غير عادي بموجب المادة ٤٠ من الدستور ، للإشراف علي سياسة الحكومة ، والقيام بواجبه تجاه هذه الظروف الخطيرة التى تمر بها البلاد نتيجة الاعتداءات التى ترتكبها السياسة الاستعمارية البريطانية في السودان ، ورأى هؤلاء الأعضاء أنه يجب علي الحكومة أن تتخذ موقفا حازما لحماية حقوق مصر والسودان[٤٢].

واجتمعت الهيئة الوفدية البرلمانية في يوم الخميس ٢١ أغسطس ١٩٢٤ بمنزل حمد الباسل وكيل مجلس النواب، وأعلنت شديد سخطها علي ما يرتكب في السودان من المظالم ، وأن المصريين ينظرون بكل عطف علي إخوانهم السودانيين الذين يتلقون بشرف وإباء ما يقع عليهم من عسف واستبداد في سبيل تحقيق استقلال وادي النيل ، وألقت الهيئة الوفدية مسئولية هذه المظالم علي السياسة البريطانية وأطماعها الاستعمارية[٤٣].

وانهالت البرقيات علي الحكومة المصرية من جميع أنحاء مصر تعلن تأييدها لإخوانهم السودانيين في ثورتهم ضد الحكم البريطانى ، وتحتج علي السياسة الاستعمارية التى تمارسها بريطانيا ضد المصريين والسودانيين بعطبره والخرطوم ، وتطالب الحكومة المصرية باتخاذ الإجراءات الكفيلة "بحفظ الأرواح البريئة والحقوق الوطنية المقدسة"[٤٤] .

وعلي أية حال فإن الطابع السلمى الذى صبغ تقارير الساسة البريطانيين بأنهم لن يواجهوا أي تمرد ثورى في السودان قد تمزق بشدة عام ١٩٢٤ نتيجة للانفجار السياسى الذى هدد الأمن العام للمرة الأولى في تاريخ الحكم الثنائى في السودان ، فهؤلاء الساسة كانوا يرون في حركات التمرد للقبائل السودانية السابقة لأحداث عام ١٩٢٤- مثل حركة علي عبدالكريم في أم درمان، وحركة

عبد القادر ودحبوبة في الجزيرة – بأنها لا تحمل صبغة سياسية ، لكن إذا اعتبرنا أن حركة محمد أحمد المهدى لها جانب سياسى ثوري تمثل في رغبة القبائل السودانية في العودة إلى حياتها الحرة دون تسلط حكومة مركزية ، فيمكن أيضا اعتبار حركات التمرد السابقة لأحداث عام ١٩٢٤ ذات طابع ثورى أيضاً ، وإن كان الطابع السياسى فيها يصطبغ بالإقليمية والمحلية ، ولا تتميز أحداث عام ١٩٢٤ عن هذه التمردات سوى أنها خرجت بالطابع السياسى المحلى إلى الطابع الدولى واتخذت شكل التنظيم السرى في تكوين المنظمة التى حركت الأحداث.

وفي وسط هذه الأحداث جرت محاولة من جانب جمعية اللواء الأبيض لاستمالة الزعماء الدينيين لمساعدتهم ضد الإدارة البريطانية ، لكن لم تكلل هذه المحاولة بالنجاح بسبب إلقاء القبض علي معظم أعضاء الجمعية ، رغم أن بعض الصحف المصرية نشرت نبأ حضور السيد علي الميرغنى اجتماع عقده زعماء للسودان ، وقرروا فيه أن السودان جزء لا يتجزأ من مصر(٤٥).

وقد أنكر السيد علي الميرغنى هذا النبأ ، وأدان مع بقية الزعماء الدينيين المظاهرات والحوادث التى وقعت في السودان في عام ١٩٢٤ ، لدرجة أن السيد علي الميرغنى أخذ يتجول في بعض المدن السودانية لتهدئة المتظاهرين ، ويدعوهم إلى الالتزام بأوامر الإدارة البريطانية ، لكنه لم يلق ترحيباً من السكان لاعتقادهم بأنه يؤيد الحكومة ومكلف بمهمة من جانبها . أما السيد عبدالرحمن المهدى فإنه لم يخرج من منزله إلا نادراً أثناء هذه المظاهرات(٤٦).

من خلال العرض السابق نلاحظ أن الزعماء الدينيين في السودان اعتمدوا علي مركزهم الدينى في بلد تشتد فيه العصبية الإسلامية ، ووجهوا كل نفوذهم إلى جانب الإدارة البريطانية ، التى كانت تهدف من تعاون الزعماء الدينيين معها إلى وقوف السودانيين إلى جانب الحكم البريطانى ضد المصريين.

وقد عبر الزعماء الدينيون في محادثاتهم مع المسئولين البريطانيين عن ولائهم وثقتهم في الحكومة البريطانية ، ولكن ليس من الحكمة أن نأخذ رأي هؤلاء الزعماء علي أنه تعبير كامل عن الرأي الوطنى في السودان ، نظراً لتطلع هؤلاء الزعماء إلى زيادة نفوذهم الشخصى في السودان ، فأحداث عام ١٩٢٤ في السودان أثبتت بالدليل القاطع أن الزعماء الدينيين الذين اعتمدت عليهم الإدارة البريطانية لا يسيطرون علي الرأى العام المستنير ، بل إن هناك

قيادات جديدة من الشباب المثقف هي التى تقوده ، ومن هنـــا بـــدأت السياســة البريطانية تبحث عن قوى جديدة تحل محل الزعماء الدينيين في السودان.

الهوامش

انتشرت في السودان الطرق الصوفية ذات الرسالة التبشيرية التى ينتمي إليـــها الشـــيخ الداعى لطريقته الذي يعمل علي كسب مزيد من الأتباع إلى طريقته الدينية ، فالطرق الصوفية إذا هي تلك الرابطة القوية بين دراسة الدين وعضوية إحدى هذه الطـــرق ، وصـــار شـــيخ الطريقة وخليفته ونوابه محل تقدير الشعب السودانى.

– د.إبراهيم شحاته حسن: مصر والسودان دراسة وثائقية مقارنة فـــي الأصـــول التاريخيـــة والفكرية للثورتين العرابية والمهدية ، الإسكندرية عام ١٩٧١ ، ص ص ١٢٩– ١٣٠.

(*) الطريقة الختمية:

تنسب هذه الطريقة إلى السيد علي الميرغنى الجد الأكبر لمحمـــد عثمـــان المـــيرغنى مؤسس هذه الطريقة في السودان ، وانتشرت هذه الطريقة في شرق السودان ، حيث قام محمد عثمان الميرغنى بتأسيس قرية الختمية بكسلا لكي تكون المقر الرسمي والرئيســـى للطريقـــة الختمية.

– د. حمدنا الله مصطفي حسن: التطور الاقتصادي والاجتماعي في الســودان ١٨٤١–١٨٨١ ، دار المعارف عام ١٩٨٥ ، ص ص ٤٣٦–٤٣٩.

(**) الطريقة السمانية: يعتبر محمد بن عبدالكريم السماني (١٧١٨–١٧٧٥) مؤسس هـــذه الطريقة في المدينة المنورة. وقد دخلت السمانية السودان في عام ١٨٠٠ علي يد أحمد الطيب البشير وانتشرت هذه الطريقة في الجزيرة بين الجوامعة والكواهلة والحلاوين، وكـــان حفيـــد أحمد الطيب البشير – محمد شريف نور الدايم أول شيخ طريقة لمحمد أحمد المهدى.

– د.إبراهيم شحاته حسن: المرجع السابق ، ص ١٣١.

(***) الطريقة الإسماعيلية: هي من الطرق الصوفية التى انبثقت عن الطريقة الختمية فـــي بداية القرن التاسع عشر ، ويعتبر الشيخ إسماعيل الولي هو مؤسس هذه الطريقة التي انتشرت في جميع أنحاء السودان وبخاصة في كردفان وأم درمان ودنقله ودارفور.

د. حمدنا الله مصطفى حسن : المرجع السابق ، ص ٤٣٩ .

(١) د.إبراهيم شحاته حسن: السياسة البريطانية في السودان وأثرها علي العلاقات المصرية السودانية (١٨٩٩–١٩١٤)،، رسالة دكتوراه غير منشـــورة ، جامعـــة القـــاهرة ١٩٦٧، ص٣٧٩.

(٢) د.محمد إبراهيم أبو سليم: بحوث في تاريخ السودان ، بيروت ١٩٩٤ ، ص١٨١.

(٣) د.محمد سعيد القدال: تاريخ السـودان الحديـث ١٨٢٠-١٩٥٥، الخرطـوم ١٩٩٣، ص٢٤٢.

(٤) جريدة السودان ، ١٦ /١٩١٩/٨.

(٥) الأهرام ، ٢ /١٩١٥/١.

(٦) الأهرام ، ٢ /٨/ ١٩١٩.

(٧) الأهرام ، ٢٣ /١٩١٥/٤.

- F.O. 371/2486.

(٨) من السيد: علي الميرغنى إلى السير: ريجنالد ونجت في ١٤ إبريل ١٩١٥.

– في نجدة فتحي صفوه: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية ، المجلـد الأول ١٩١٤-١٩١٥ ، بيروت ١٩٩٦ ، ص ٤٨٣.

(٩) نفس المصدر السابق.

(١٠) سليمان موسي: الحركة العربية – المرحلة الأولي للنهضة العربية الحديثـة ١٩٠٨-١٩٢٤، ص ص ١٥٤ ، ١٥٥.

(١١) د.يونان لبيب رزق: السودان فى عهد الحكم الثنائى الأول ١٨٨٩-١٩٣٤، القـاهرة، ١٩٧٦، ص٣٦١.

- F.O.141/461/1198.

(١٢) من الشريف: حسين إلى السيد: علي الميرغنى

في نجدة فتحي صفوة: المصدر السابق، ص ص ٥٨٠-٥٨٢.

(١٣) نفس المصدر السابق.

- F.O. 371/2486.

(١٤) من السير: هنرى مكما هون إلى وزارة الخارجية نوفمبر ١٩١٥.

في نجدة فتحي صفوة: المصدر السابق ، ص ص ٥٨٩-٥٩٠.

- F.O. 882/18

(١٥) من السيد :علي الميرغنى الي الشريف: حسين في ١٧ نوفمبر ١٩١٥.

(16) F.O. 371/3711. R. Wingate to Earl Curzon, April 3,1919.

(17) Ibid,3711,Sir Lee Stack to Earl Curzon, Khartoum, March 21,1919.

(18) Wingate Papers, Durham University(W.P.D.U),Box 03/711. PP. 47-51.

(19) Abd - AL Rahim, M.:I Imperialism and Nationalism in the Sudan (Oxford, 1969) PP.98-99.

(20) F.O.371/3711. Enclosure in No. 4. Sir Lee stack to R. Wingate , Feb. 23,1919.

(21) Ibid., No. 7.R.Wingate to Earl Curzon April 27,1919.

(22) Ibid., No , 14. Allenby to Earl Curzon, May 17,1919.،

– التيجاني عامر: السودان تحت الحكم الثنائي ١٨٩٨–١٩١٨، القاهرة ١٩٧٩، ص٧١.

(٢٣) جريدة السودان ، ٢ /٨/ ١٩١٩.

(٢٤) جريدة السودان ، ٢٠ /٨/ ١٩١٩.

(25) Fabunmy, L.A: The modern History in Anglo - Egyptian Relations 1800-1956, A Case Study in Power Politics, London 1960.PP.79-80.

(٢٦) الأخبار ، ١٤ /٦/ ١٩٢٤.

(٢٧) محافظ عابدين: محفظة ١٠٥ السودان.

(٢٨) المصدر السابق.

(٢٩) نفس المصدر السابق.

(٣٠) نفس المصدر السابق.

(٣١) الأهرام ، ٨ /٨/ ١٩٢٤.

(٣٢) المصدر السابق ، ٢٣ /٧/ ١٩٢٤.

(33) W.P.D.U. Box, 403/7/1. PP.49-50

(34) Ibid., P.54

(٣٥) الأهرام ، ٢٣ /٨/١٩٢٤.

(٣٦) مجلس الوزراء – محفظة ٣/ب – خطاب بتوقيع بعض أعضاء مجلس النواب إلى رئيس مجلس الوزراء بالنيابة ، في ١٥ أغسطس ١٩٢٤.

(٣٧) المصدر السابق.

(٣٨) المصدر السابق: ملف ٧/٢/١٠ ، مجلس الشيوخ بتاريخ ٢٦ يونية ١٩٢٤.

(39) Fabunmy, L.A: op,cit .P.80.

(٤٠) مجلس الوزراء محفظة ٣/ب/ملف ٧/٢/١٠. تلغراف من محمد شلبي عن صف وعساكر السكة الحديد الي دولة رئيس الوراء المصرية ، عطبرة ١٠/٨/١٩٢٤.

(٤١) المصدر السابق: تلغراف من الموظفين المصريين بالسودان الي دولة رئيس مجلس الوزراء بالنيابة ، عطبره في ١١ أغسطس ١٩٢٤.

(٤٢) نفس المصدر السابق: خطاب بتوقيع أعضاء الحزب الوطني بالبرلمان المصري الي رئيس مجلس الوزراء بالنيابة ، في ١٥ أغسطس ١٩٢٤.

(٤٣) نفس المصدر السابق: قرار الهيئة الوفدية في ٢١ أغسطس ١٩٢٤.
(٤٤) نفس المصدر السابق: ملف ٧/٢/١٠ وهو ملف العديد من التلغرافات من كافة الهيئات والأحزاب الي رئيس الوزير المصري بالنيابة.
(٤٥) نفس المصدر السابق، ملف ٧/٢/١٠ مجموعة تلغرافات من أنحاء القطر المصـــرى إلى رئيس الوزراء بالنيابة ، في أغسطس ١٩٢٤.
(٤٦) الأهرام ، ٦ ، ١٩٢٤/٩/١٠.
(٤٧) الأهرام ، ١٩٢٤/٩/٢٤.

obeikan.com